وهو مجموع مطوّل ضمّنهُ صاحبهُ احاديث مطربة وروايات مبهجة واقاويل فكاهية غايتها ترويح النفس وبسط القلب. وهذا الكتاب قد انجز طبعهُ في لندن عام ١٨٩٦ المستشرق العلاّمة الشهير بدجر (Badger) واحكم ضبطهُ وترجمهُ الى الانكليزية وذيّلهُ بعدّة حواشٍ تاريخية ولغوية وادبية (ستأتي البقية)

في الروايات الخياليّة

للاب اميدي لوريول اليسوعي

(تابع لما سبق)

ولمّا صارت حالة اوربّة الى الهدوء والسكينة في القرون المتوسطة وامتزجت امم الشمال الحديثة العهد بقدماء سادة العالم من الرومان وغيرهم ثارت فيهم روح الحميّة وحملتهم النخوة على تخليد مآثرهم. وكان العرب وقتئذٍ يملكون الاندلس وقسمًا من جنوبي فرنسة فيدخل شعراؤهم على الامراء يشنّفون آذانهم بتديحهم ويطربون مسامعهم باحاديثهم وفكاهاتهم. فالتفّ بهم شعراء الغرب واخذوا عنهم قوافي ازجالهم وجعلوا يطوفون في بلاد اوربة فيتقابون ملوكهم مجتدين نوالهم باناشيدهم المطربة واقاصيصهم المستطرفة يمدّدون فيها محامد الاشراف ويطنبون على مكارم اجدادهم. وهم المشهورون عندهم باسم البَرد (barde) والتروبادور (troubadour) والمينسترل (ménestrel)

فمن ذلك نتجت تلك الروايات الانيقة التركيب السهلة الالفاظ الرقيقة المعاني التي لا تزال الى يومنا تبهج القلوب وتفكه الالباب. ومن خواصّ هذه الروايات انّهُ يغلب عليها روح الدين وتستنكف للهجر والبذيء من الكلام وتأبى الهزل المستقبح وتصون عِرض النساء. ولا بدعَ فانّ تلك الاجيال كانت مُشربةً روحَ الدين وتعمل بموجب وصايا الانجيل الشريف حتى لم يأنف بعدئذٍ فيليون احد مشاهير اساقفة فرنسة ان يكتب روايةً خيالية لتهذيب حفيد لويس الرابع عشر فوضع لهُ قصّة تليماك وادمجها بكلّ ما وقّ وراق من الشمائل الحماسية والعواطف اللينة والمواعظ الحكمية والتعاليم السياسية. وكتابهُ هذا تحفةٌ من متاحف اللغة الفرنسية يُدرس كما تدرس تآليف اكبر الادباء.

وكانت هذه الروايات تختلف في كلّ دولة على اختلاف اذواق اهلها فكان القصّاصون من الفرنج والايطاليان يشيدون بمناخر رولان (Chanson de Rolland) والاسبان يتباهون باعمال رودريغ دي بيڤار المشهور بالسيد (le Cid) والالمان يروون مآثر سيغفريد (Siegfried) وآل نيبلونغن (Niebelungen) والانكليز يطنبون بعاظم الملك ارثور (Arthur)

ولم يتأخر كتبة الشرق في تلك الاثناء عن سرد الروايات الخيالية. وكان العجم سبقوا العرب في كتابة هذه الروايات. فوضعوا كتاب هزار افسانة اي الف خرافة وهو الكتاب الذي اخذهُ عنهم العرب فاتّسعوا بهِ ونمّقوهُ ونسجوا على منوالهِ كتاب الف ليلة وليلة ولم يزالوا يتصرّفون بهِ حتى بلغ في القرن الرابع عشر للمسيح الى هيئتهِ المعهودة في زماننا (١. والعجم ايضاً تآليف كثيرة اودعوها حكايات خيالية منها كتاب الف يوم ويوم وقد مرّ ذكر كتاب شاه نامه للفردوسي صنّفهُ في القرن العاشر وجمع فيهِ جميع اخبار قدماء الفرس وجبابرتهم كرُستم وكيكاوس. وصنّف العرب في القرن الثالث عشر اخبار عنترة اودعوها قسماً كبيرًا من تواريخ ملوك العراق وغسّان وقبائل اليمن والحجاز ثم كتبوا اخبار سيف بن ذي يزن وسيرة بني هلال وما شاكلها ممّا نُشر في ايّامنا بالطبع بعد ان تناقلتهُ ألسنة القصّاصين مدّة قرون عديدة وتصرّفت فيهِ كلّ تصرّف

وهذا الطور من تاريخ الروايات اكثر ما غلب عليهِ الغلوّ في وصف الامور العجيبة والاحاديث المستغربة والحروب العوانة ممّا لا يسهل تصديقهُ وتبعد عن العقل حقيقتهُ. وذلك الى اوائل القرن السابع عشر لمّا ظهر الكاتب الاسباني سرڤنتس فصنّف كتابهُ المشهور بدون كيشوت (Don Quichotte) فكان هذا التأليف ضربةً لازبة في اوربة على هذه الروايات المبالغة في عمل الخيال. وذلك لانّ هذا المؤلف عرض للهزء والسخريّة آل عصره الذين كانوا يهيمون بقراءة كتب خرافية مفعمةً من الاقاصيص المختلقة والخزعبلات الملفّقة فكسد منذ ذاك سوقها ولم تعد تنفق بضاعتها

غير أنهُ ظهر في ذلك القرن كتبةٌ اخذوا ينهجون في تصنيف القصص الخيالية طريقةً أخرى فجعلوا يُحيون بكتاباتهم حكايات آلهة اليونان فيكسونها صورة جديدة ليحسّنوها في اعين

١) راجع مقدّمة الاب صالحاني على طبعة الف ليلة وليلة

القوم . فرشق الشاعر بوالو (Boileau) هذه المصنفات بنبال شعره المصيب فلم يعد احد الى كتابة مثلها

ولكن لما كان الانسان مجبولاً على حبّ التخيُّل لم يلبث قوم من الكتبة الاوربيين ان يصنفوا روايات جعلوها على نمط جديد وتحرّوا فيها وصف الطبيعة والتشبُّه بالواقعيات ما امكنهم . ومما كتب من هذا القبيل فاستحسنهُ ذوو الذوق السليم اخبار روبنصن كروزي واسفار الاكرسيس . وبرع في انكلترة كتبةٌ كريشاردسُنْ (Richardson) وولنغ (Willing) وسويفت (Swift) وكلهم احسنوا وصف آداب عصرهم على صورة الروايات الخيالية ومسَّن برَّز في فرنسة في ذلك برزدان دي سان پيار (Bernardin de S^t Pierre) ورابلي (Rabelais) بيد انَّ كتبهُ هاتكة لستر الآداب

فلما خُتم القرن الثامن عشر ولاحت انوار العصر التالي حتى صار مؤلفو الروايات الخيالية يرتاحون الى كثرة الاوصاف وتمديد احوال البشر في كلّ حالاتهم مع رسم عواطفهم الباطنة وتصرّفاتهم الجنَّة في العائلة وفي كلّ اطوار الهيئة الاجتماعية

وفي عصرنا هذا اضحى فنّ الروايات متَّسع النطاق شائعاً ايَّ شيوع فان ما يطبع منها سنويًّا يتجاوز الالوف . وان اردنا سرد اسماء الكتبة الذين يتعاطون هذا المهنة لضاقت على اتساعها صفحات هذه المجلَّة

هذا وليس في معرفة هولاء الكتبة من طائل كبير من حيث المعاني ومن حيث التعبير . وكثيرًا ما يكفي للقارئ ان اراد الوقوف على كنه هذه الكتب ان يطالع فهرست الرواية فيكون على بصيرة من حقيقتها ولا يصرف وقتهُ في مطالعتها

وتجمل ما اردنا بيانهُ في هذه اللمعة ان نوضح ما يختصّ بجوهر الروايات المختلفة وانَّها كلّها مبنية على الخيال جلُّ ما تصفهُ العواطف الباطنة واهواء النفس ومن هذه المقدّمات يمكننا ان نستنتج ما تكنُّهُ الروايات من الاخطار اذ تمثل امورًا خياليَّة كانَّها جارية في الواقع وتثير ادقّ ما في الانسان من الاحساسات والعواطف فتحبّب اليهِ امورًا وتبغّض اليهِ اخرى وفي كلا الحالتين مبالغة وقد قيل انَّ احسن الامور اوساطها

(ستأتي البقية)